الكتب الخمسة لكنفشيوس

بقلم
الدكتور حسن شحاتة سعفان
رئيس قسم الاجتماع بجامعة الأزهر

١ — حياة كنفشيوس وبيئته الاجتماعية والثقافية

يعد كنفشيوس زعيم حكماء الصين القدامى ؛ فقد كان حكيما وفيلسوفاً سياسياً وأخلاقياً ودينياً ، وكان مؤسساً لمدرسة دينية سادنفوذها الشعب الصينى أكثر من خمسة وعشرين قرناً أو منذ القرن السادس قبل الميلاد حتى أوائل القرن العشرين ، وذلك فيما عدا فترات قصيرة كانت تنتصر فيها بعض المدارس الدينية الأخرى وذلك كمدرسة التاويين Taöisme وهى تقوم على تقديس أرواح الطبيعة والأجداد . ولكن المنافس الأكبر للمذهب الكنفوشى كان المذهب البوذى الذى ظهر فى الهند فى القرن الخامس قبل الميلاد وانتشر انتشاراً سريعاً فى الهند ثم بدأ يغزو الصين واستطاع أن ينتصر انتصارا ساحقا على المذهب الكنفوشى ، إذ يدين به الآن معظم الصينيين . ففى إحصاء قريب بلغ عدد سكان الصين حوالى ٦٠٠ مليون منهم ٣٥ مليونا من المسلمين ومليونان وربع من المسيحيين والسواد الأعظم بعد ذلك من البوذيين ، ولكن البوذية فيما يرى كثير من العلماء لم تهزم الكنفوشية ، بل كانت امتداداً لها فى كثير مما أتت به من مبادئ ، وكان هــذا سرَّ قوتها وسرعة انتشارها بين الصينيين ، إذ أنها وجهت الأفراد إلى كثير من مبادئ الكنفوشية وجعلتهم ينعمون النظر فى هذه المبادئ ويتأملونها أكثر من أى وقت مضى . فالبوذية فى رأيهم قد غيرت بعض المبادئ الكنفوشية ولكنها لم تستطع أن تقضى على المذهب الكنفوشى.

ودراسة كنفشيوس أو المذهب الكنفوشى هامة لا لأنها تبين لنا المبادئ التى شكلت الأخلاق والدين والسياسة فى الصين لمدة خمسة وعشرين قرناً فحسب بل لأن لها أهمية خاصة منذ أن دخلت الشيوعية الصين ، أى منذ سنة ١٩٤٩ ، لأن الكونفوشية والشيوعية تقفان الواحدة من الأخرى على طرفى نقيض . فالكنفوشية تقوم على تمجيـــد النظام الإقطاعى وتقويته واتخاذه أساساً للحكم بينما الشيوعية ضد ذلك على خط مستقيم . ولقد سبق أن تلاقى النظامان الشيوعى والإقطاعى على أرض الصين فى القرن الثالث قبل الميلاد وقام صراع عنيف بين أنصار كلا النظامين وانتهى الصراع بانتصار الكنفوشية . ويتساءل الآن علماء السياسة والاجتماع عما إذا كان روح الكنفوشية الكامن فى نفوس الصينيين سيؤدى يوما إلى القضاء على الشيوعية الصينية أو على الأقل إلى زحزحتها عن المبادئ الشيوعية الأصلية بحيث

تتخذ الشيوعية الصينية طابعاً يميزها عن شيوعية ماركس ولينين :

ويتكون اسم كنفشيوس وهو الاختصار اللاتيني Confecius لاسم الحكيم الذى نتحدث عنه ، من لفظين : كنج Kung وهو اسم القبيلة التى ينتمى إليها الحكيم ، ثم فوتسى Fu-tze ومعنـــاه الرئيس أو الفيلسوف ، فاسم كنفوشيوس إذن يعنى رئيس قبيلة كنج وفيلسوفها أو حكيمها ، ولقد ولد هذا الحكيم سنة ٥٥١ قبل الميلاد فى ولاية لو Lu وكانت الصين فى ذلك الوقت تسير على النظام الإقطاعى ، فكانت مقسمة إلى ولايات وعلى رأس كل ولاية دوق أو وال يخضع للامبراطور كما كانت كل ولاية مقسمة إلى مقاطعات على رأس كل منها نبيل . وكانت المقاطعات التى تؤلف كل ولاية فى تطاحن مستمر فيما بينها ، فكل منها كانت تحاول التوسع على حساب الأخرى ، وكذلك كانت الحال بين الولايات : عراك مستمر بين الولاة الذين كان يحاول كل منهم التوسع على حساب الآخرين . وكانت الحوادث تؤرخ بالنسبة لحكم الولاة والنبلاء ، فمثلا ولد كنفشيوس فى السنة الثانية والعشرين من حكم هسيانج أمير ولاية لو ، وهى تقابل سنة ٥٥١ قبل الميلاد . ولقد كان كنفشيوس ثمرة لاتصال غير شرعى بين والده الذى كان فقيراً وإن كانت أسرته من أعرق الأسر الصينية التى كانت تحكم بعض الولايات منذ الأزمنة السحيقة وبين والدته ، ونشأ كنفشيوس الفقير فى خدمة أحد الأمراء الذى كلفه برعى الأغنام . وتفانى كنفشيوس فى هذه الحرفة مما أدى إلى زيادة نتاج الثروة الحيوانية فى الولاية ، ومن ثم رقى بعد ذلك إلى منصب مشرف على الحدائق العامة بالولاية ، ثم اضطر لترك مسقط رأسه لكى يتنقل فى بعض الولايات المجاورة لأنه شعر أن هذه الأعمـــال لا تناسب مواهبه ، وأخيراً أنشـــأ فى سن الثانية والعشرين مدرسة لتعريف الشبان ذوى المواهب الخاصة بأصول الفلسفة الأخلاقية والسياسية . وأصبح اللامعون من بين تلاميذه الذين بلغوا ثلاثة آلاف ، من قادة الفكر والسياسة فى الصين القديمة ، كما كانوا هم الذين نقلوا آراء الأستاذ فيما بعده . ولقد اتصل بفضل بعض تلامذته حوالى سنة ٥٢٤ ق . م بفيلسوف صينى آخر كان معاصراً له وهو لا أوتسى Laotze وهو من أشهر فلاسفة الصين القدامى وهو الذى يعزى إليه المذهب أو الدين التاوى Taöism الذى يقوم على وجود Tao وهو القانون السماوى الأعظم ، وأصل الحياة والنشاط والحركة فى السماء والأرض وهو الذى يبعث الحياة فى الموجودات . ثم عاد كنفشيوس إلى لو Lu مسقط رأسه ليستأنف التدريس هناك ، ولكنه أصبح فى نفس الوقت مستشاراً لكثير من الولاة والأمراء والنبلاء فى الشئون السياسية ، ووجد الفرصة سانحة لتطبيق آرائه السياسية ، ولما نجح فى تطبيق آرائه فى بعض المدن إذ أصبحت مدناً مثالية رقى إلى وزير للأشغال العامة بعد أن اشتغل قاضياً فى بعض الولايات . ذاع نجاح سياسة كنفشيوس ونبأ لباقته وحكمته فى إدارة الشئون القضائية والسياسية فعينه حاكم ولاية لو سنة ٤٩٦ رئيساً لوزرائه. وأصبحت ولاية لُو من أقوى الولايات وأغناها وأكثرها استقراراً وأمناً ، مما أدّى إلى حقد حكام الولايات الأخرى إذ كانت تخشى بأس ولاية لو ، فاتفق بعض الحكام على إرسال وفد نسائى يقوم بالرقص أمام حاكم لو ووزرائه ، ويستطيع أن يؤثر فى سير أحوال الولاية ، ونجحت الخطة فى إفساد رجال الحكم فى الولاية بالرغم من تحذير رئيس الوزراء ، واضطر كنفشيوس للاستقالة حاقداً على النساء اللائى أدّيْن إلى القضاء على مجهوداته فى إصلاح الولاية ؛ إذ قال فيهن فى كتاب الأغانى قبل تركه لو .

« احذر لسان المرأة
إنك لا شك ستلدغ منه إن عاجلا وإن آجلا
واحذر زيارة المرأة
إنها ستصيبك إن عاجلا وإن آجلا

هِي هُو ! ! هِي هُو ! ! (علامة على التأوه من ألم ما أصابه من النساء)

إننى سأرحل إلى مكان آخر » .

ثم بدأ كنفشيوس فى الارتحال والتجوال بين الولايات الصينية وبدأ يتصل بالولاة ويقدم النصائح ويدرس للناس ويناظر العلماء والأدباء . ولقد تعلم كنفشيوس الموسيقى على يد أساتذة الموسيقى القدامى من أمثال هزيانج — تس ؛ كما أصبح خبيراً فى الشئون العسكرية إلى جانب خبرته بالفلسفة والسياسة . ولقد امتدت فترة الارتحال والتجوال من حوالى سنة ٤٩٣ ق.م حتى وفاته سنة ٤٧٩ ق.م ، بعد أن عاش ٧٢ عاماً . ويصور الصينيون مولده ووفاته كما يصور كثير من أصحاب الديانات مولد أنبيائهم ووفاتهم ، إذ يعتبرونه نبياً ورسولا ، بالمعنى الذى يفهمونه من هذين التعبيرين . وكان لكنفشيوس ابن واحد يدعى لى أما توفى عن خمسين سنة قبل والده ، بعد أن ترك حفيداً لكنفشيوس هوتزيتس Tsesze الذى كان عالماً وفيلسوفاً ضرب بسهم وافر فى سبيل نشر فلسفة جده .

٢ — العلوم التى كانت سائدة ومؤلفات المدرسة الكونفوشية :

لقد كانت الدراسات التاريخية أهم الدراسات السائدة فى الصين فى القرن السادس قبل الميلاد . ذلك أن الصين كان بها حضارة يانعة مزهرة فى جميع الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية فى القرن العشرين قبل الميلاد . وحدث بعد ذلك أن انحطت الأحوال فى الصين ابتداء من القرن العاشر ، كما تغيرت اللغة الصينية تغيراً كبيراً فى تلك الفترة بحيث أصبح رجل القرن السادس قبل الميلاد غير قادر على قراءة مؤلفات الحضارة الصينية العتيقة ، مما أدى إلى شبه انقطاع تام بين حضارة الصين العتيقة وبين أجيال القرون الأولى قبل الميلاد ، لذلك ركز كنفشيوس جهوده فى نقل هذا التراث القديم إلى لغة الصين الجديدة آنذاك مضيفاً إليه أجزاء لا شك فى أصالتها فى الحكمة والمعرفة . وعلى ذلك درس كنفشيوس وعلم كتب السابقين عليه فى التاريخ والتغييرات التى طرأت على الأرض وما عليها منذ أقدم العصور ، واعتمد فى هذا على الكتاب القديم المسمى Yiking أو كتاب التغيرات ، واستمر سنين عديدة يدرس هذا الكتاب الذى يرجع لسنين سحيقه ولا يعرف مؤلفه . إن جهد كنفشيوس الأكبر يظهر فى نقله التراث الصينى السحيق فى لغة بسيطة سهلة حتى يفيد منها الصينيون فى عصره ويعيدوا مجد أسلافهم القدامى . لذلك كان يتنقل ويرتحل باحثاً عن الآثار والوثائق القديمة ومنقباً عن كل ما عسى أن يساعده فى تقديم معلومات جديدة عن التاريخ الصينى السحيق . كان يدرس التقاليد والعادات الدينية فى ولايات الصين المختلفة محاولا أن يصعد بها إلى أصولها الأولى ، ولقد أدت مجهوداته فى النهاية إلى تأليفه للكتب الخمسة أو الكلاسيكيات الخمسة Five classics . وهى مؤلفاته التى يعرض فيها تاريخ الصين القديم وأصول ديانات الأسر الصينية القديمة وعشائرها وأصول الحكم السياسى فيها والمبادئ التى كان يقوم عليها النظام السياسى . كما درس ونقل مجموعات الأغنيات التى صدرت عن تشى إس ثم هوتشى ، وهما يمثلان الأجداد الخرافيين لأباطرة دولة تشو الصينية . كما درّس أخيراً ودرّس فروع المعرفة الستة التى كانت سائدة فى عصره ، وهى التى كانت تسمى بالفنون الستة وهى : الطقوس والموسيقى والرماية ، وقيادة العربات والجياد ، والقراءة وأخيراً الرياضة والحساب . وكان تلاميذ كنفشيوس يلقبونه باسم « معلم الجنس البشرى » ، بل كانوا يعدونه أعظم معلم « أنجبته العصور » . وكانوا

ينقلون آراء أستاذهم ويعلقون عليها ويشرحونها . وتألف عن ذلك مدرسة كبرى هى المدرسة الكونفوشية التى خدمت الصين أكثر من ألفى سنة . لذلك تنقسم مؤلفات المدرسة الكونفوشيـــة إلى قسمين : قسم يسمى « الكتب الخمســة » وهى الكتب التى كتبها كنفشيوس بنفسه أو نقلها عن العصور السحيقة وأضاف إليها إضافات أصلية وهى كتب تحتوى على مذاهب السابقين على كنفشيوس فى السياسة والفلسفة والاجتماع والدين والموسيقى . أما القسم الثانى ، فهو مؤلفات تلاميذ كنفشيوس فى حياته أو بعد وفاته ، وفيها يعرض هؤلاء التلاميذ لآراء أستاذهم وفلسفته مع شرح وتعليق . وهذه الكتب الأخيرة مهمة جداً لأنها تعد المرجع الرئيسى للفلسفة الكونفوشية وإن كانت معظم أجزائها منقولة عن الكتب التى ألفها كنفشيوس . ولكن أهميتها ترجع إلى أنها تهتم بآراء كنفشيوس أكثر من اهتمامها بالآراء والتقاليـــد التى كانت سائدة فى العصور السحيقة ، كما أنها تشرح الفلسفة الكونفوشية بشكل مبسط سهل يرقى إليه تفكير الرجل العادى ، وسنعرض الآن فى شئ من التفصيل لهذه المؤلفات :

أولا : الكتب الخمسة القديمة التى ألفها كنفشيوس بنفسه وهى المسماة باسم الكلاسيكيات الخمسة .

١ — كتاب الأغانى أو الشعر : وهو يحتوى على ثلاثمائة وخمس من الأغنيات والتواشيح الدينية، وذلك بجانب ستة تواشيح تغنى بمصاحبة الموسيقى ، وهى تعطى فكرة عن الأديان التى كانت سائدة فى الصين والفولكلور أو المردّدات الشعبية الصينية فى العصور السحيقة .

٢ — كتاب التاريخ : وهو يشتمل على الوثائق التاريخية الخاصة بالصين فى عصورها السحيقة ولاسيما الأوامر والمراسيم الملكية والامبراطورية .

٣ — كتاب التغيرات : وهو يبين فلسفة تطور الحوادث ، وقد ألف فى الأصل للإفادة منه فى التنجيم ومعرفة الحوادث المستقبلة ، ولكن كنفشيوس استطاع أن يحول « علم » التنجيم إلى دراسة علمية للسلوك الإنسانى وكيف يتأثر بالظروف الطبيعية والاجتماعية التى تكتنفه ، ومن ثم يمكن عن طريق هذه الدراسة التنبؤ علمياً بسلوك الفرد فى المستقبل .

٤ — الربيع والخريف : وهو كتاب للتاريخ بمعنى الكلمة ، إذ قد عالج كنفشيوس فى هذا الكتاب تاريخ الصين بالتفصيل أثناء قرنين ونصف من الزمان أو فيما بين سنتى ٧٢٢ و ٨٤١ قبل الميلاد .

٥ — كتاب الطقوس أو التقاليد : وهو يعالج النظام السياسى لأسرة تشو القديمة ، وهى من الأسر الملكية الشهيرة التى لعبت دوراً هاماً فى تاريخ الصين فى العصور السحيقة ، كما يعـــالج عدداً كبيراً من العادات والتقاليد الدينية والسياسية الهامة فى حياة الصين فى العصور التاريخية البعيدة .

ثانياً : الكتب التى كتبها تلاميذ كنفشيوس :

١ — فصول من كتاب الطقـــوس « الأخلاق والسياسة » .

٢ — فصول من كتاب الطقوس « الانسجام المركزى » .

وهذان الكتابان عبارة عن أقوال مأثورة عن كنفشيوس وأتباعه ومرجعهما الأساسى كتاب الطقوس مع تفسير هذه الأقوال .

٣ — المنتخبات وبه ملخص لأقوال كنفشيوس فى المناسبات المختلفة كما سجلها تلاميذه .

٤ — منسيوس Mencius وهو مؤلف كبـــير يحتوى على سبعة كتب تعالج مذهب كنفشيوس .

ومن المحتمل أن يكون مؤلف هذه الكتب السبعة منسيوس نفسه وهو تلميذ روحى لكنفوشيوس وقد تتلمذ فعلا على تزيتس Tsesze حفيد كنفشيوس ،

ويمثل منسيوس أكبر شخصية من شخصيات المذهب الكنفوشي بعد كنفشيوس وكان فيلسوف عصره .

ولما كان كتاب المتتخبات Analects يشتمل على ملخص لفلسفة كنفشيوس بشكل أوضح منه نسبياً من الكتب الأخرى فقد انتشر بين تلاميذ المدرسة وأتباعها حتى عرف باسم إنجيل الكنفوشية Confecious Bible. والكتب التى ألفها التلاميذ والأتباع تسمى الكتب الأربعة ، وهى قائمة على الكتب الخمسة لأنها تفسرها وتشرحها وتذكر حوادثها بشكل أوضح وتعرض لآراء كنفشيوس أكثر مما تعرض لفلسفة الصين فى العصور العتيقة ، بينما الكتب الخمسة التى كتبها كنفشيوس تتعرض بشكل أكبر للفلسفة القديمة العتيقة أكثر مما تتعرض لآراء كنفشيوس نفسه . ولكن كلتا المجموعتين من الكتب تكون جزءاً لايتجزأ من المذهب الكنفوشي .

٣ — أسلوب كنفشيوس ومنهجه :

وإذا رجعنا إلى مؤلفات كنفشيوس والمدرسة الكنفوشية ، أى إلى الكتب الكلاسيكية الخمسة ثم الكتب الأربعة التى كتبها تلامذة كنفشيوس ، لوجدنا أنها فى الجزء الأكبر منها مكتوبة على صورة أمثلة سائرة وحكم ومواعظ منفصلة بعضها عن بعض ولاتربطها أية رابطة . وهذا هو الفرق الجوهرى فى أسلوب الكتابة بين كنفشيوس وغيره من الحكماء والفلاسفة ، فأفلاطون مثلا يكتب على طريقة المحاورات ويستطيع القارئ لمحاورة منها كالجمهورية أن يتبين أراءه ومذهبه ، وأرسطو يكتب على طريقة المحاضرة فيعالج موضوعا أو عدة موضوعات متكاملة . أما كنفشيوس فهو يذكر أمثلة وقصصاً مسرودة الواحدة بعد الأخرى ولا رابطة بينها ، وليس ثمة تبويب أو تصنيف للموضوعات التى يحتوى عليها كل كتاب . والأمثال والحكم كثيراً ما نجدها وقد فصلت عن المناسبة التى قيلت فيها ، مما يزيد كثيراً فى صعوبة فهم المقصود من بعضها . لذلك قد عرف كثير من العلماء كنفشيوس بأنه الرجل الذى لا يتكلم إلا بحكم وأمثال قصيرة منفصلة ، كما كان بعضهم يرى استحالة استخلاص مذهب فلسفى أو اجتماعى من تلك الكتب التى هذه حالها. ولكن العلماء الصينيين فى كل عصر من العصور ، ثم العلماء الأوربيين قد استطاعوا بعد دراسة هذه الكتب استخلاص المذهب الفلسفى الكنفوشى واتجاهاته فى السياسة والاقتصاد والدين ... وفى غيرها من المجالات الأخرى ، ولاسيما أن هذه الأمثلة والقصص القصيرة التى ملئت بها كتب كنفشيوس كثيراً مايتخللها قصص طويلة بعض الشيء تفصح عن آراء كنفشيوس فى شيء كبير من الجلاء والوضوح . تلك هى السمة الأولى من سمات كنفشيوس وسنورد هنا بعضاً من حكمه وأمثلته .

« الرجل الذى يخطىء ولا يصلح خطأه يرتكب خطأ جديدا ؛ الرجل الذى يعشق الحق أفضل من الذى يعرف الحق، وذلك الذى يجد سعادته فى الوصول للحق أفضل ممن يعشق الحق؛ إذا وجدت شخصاً يستحق أن تتحدث معه ولم تخاطبه فإنك تكون قد افتقدته، وإذا وجدت شخصاً لا يستحق أن تتحدث معه وخاطبته فإنك تكون قد أضعت كلامك سدى . والرجل العاقل هو من لايفتقد الرجال ولا يضيع كلامه سدى ؛ وسئل الحكيم مرة عن حكمه على شخص يحبه كل أفراد القرية، فأجاب « ليس ذلك بكاف للحكم عليه » ثم سئل عن رأيه فى شخص يكرهه كل أفراد القرية فأجاب« ليس ذلك بكاف للحكم عليه » ثم أضاف« إن الشخص الفاضل هو من يحبه الصالحون من أفراد القرية ويكرهه منهم الطالحون » . « إن الإنسان هو الذى يجعل الصدق عظيما ، وليس الصدق هو الذى يجعل الإنسان عظيماً ». وقال عن الكلام الجيد « إن الرجل ذا الأخلاق الكريمة لا يقول إلا كلاماً جيداً ولكن الرجل ذا الكلام الجيد لا يكون دائماً ذا أخلاق كريمة » أى قد يكون منافقاً . ويقول « إن الرجل العاقل لا يمدح

الناس على أساس أقوالهم (بل على أساس أفعالهم) ولا ينكر الحقيقة إذا كانت صادرة عن شخص لا يرتاح إليه، إذ الحقيقة جميلة أيًّا كان مصدرها» وسئل مرة عن صفات الحكم المثالى فأجاب « بأنه الحكم الذى يجد الناس تحت ظله غذاء كافيا ، وجيشاً جراراً يحميهم ، وثقة عظيمة فى حكامهم » ، وسئل عما يمكن الاستغناء عنه من هذه الأمور الثلاثة إذا دعت ضرورة إلى ذلك فقال « أفضل أولا الاستغناء عن القوة أو الجيش » ثم سئل عما يمكن الاستغناء عنه بعد ذلك فأجاب « أفضل الاستغناء عن الطعام ، إذ ما أكثر من ماتوا جوعاً من الأفراد فى كل جيل منذ أن وجد الإنسان ، ولكن لم يحدث أن عاشت أمة بدون ثقة فى حكامها » . ويقول عن الفضائل وما يعتريها من نقائص « حب الإنسانية بدون حب للدراسة يولد الجهل ، وحب العلم بدون حب للدراسة يؤدى إلى الضلال وعدم التثبت ، وحب الإخلاص بدون حب للدراسة يؤدى بصاحبه إلى أن يكون ضحية الخداع ، وحب الاستقامة بلا دراسة يؤدى إلى الرعونة التى لا حدود لها ، وحب الشجاعة بلا دراسة يؤدى إلى التمرد ، وحب العزم والمثابرة بلا دراسة ينتهى بصاحبه إلى الخبل أو التعلق بفكرة متسلطة » . ويقول عن ثقافة الشعب : عندما أدخل قطراً من الأقطار أستطيع أن أعرف بسهولة نوع الثقافة السائدة فيه ، إذ عندما أجد فى الناس رقة الطبع والشفقة والبساطة فإن هذا يدل على تعلقهم بالشعر ، وعندما يكون الناس واسعى الأفق ، عارفين لماضيهم فإن هذا يدل على تمسكهم بالتاريخ . أما إذا كانوا كرماء متفاهمين بعضهم مع بعض ، فإن هذا يدل على سيادة الموسيقى . وإذا كان الشعب هادئاً مفكراً ذا قوة وملاحظة فإن هذا يدل على سيادة فلسفة التعبير . ولكن إذا ساد التواضع والاحترام والقناعة فى عادات الأفراد فإن هذا يدل على سيادة تعاليم الله » .

أما السمة الثانية فى أسلوبه فهى استخدامه نوعاً من القياس المسمى بالقياس المتتابع ، إذ اتضح أن كنفشيوس لا أرسطو هو أول مفكر استخدم منهج القياس المنطقى المتتابع ، وهو يقوم على عدة أقيسة متتابعة يتخذ كل منها مقدمته من النتيجة التى انتهى إليها القياس السابق عليه . وهذا المنهج يسيطر على جزء كبير من كتاباته ، ومن أمثلة ذلك القيـــاس قوله « إذا فهم الإنسان طبيعة هذه الصفات الأخلاقية فإنه سيفهم كيف ينظم سلوكه الفردى والأخلاقى ، وإذا فهم كيف ينظم سلوكه الفردى فإنه سيفهم كيف يحكم الناس ، وإذا فهم كيف يحكم الناس فإنه سيفهم كيف يحكم الأمم والامبراطوريات » أوكقوله عن الصدق « إن الحق المطلق غير قابل للتحطيم ، ولما كان غير قابل للتحطيم فهو خالد ، ولما كان خالداً فإنه موجود بذاته، ولما كان موجوداً بذاته فهو لانهائى ، ولما كان لانهائيا فهو واسع وعميق ، ولما كان واسعاً وعميقاً فهو متعال وروحى ... » ويصف الطريق السليم الذى يجب أن يسلكه الحاكم حتى يكون فاضلا بقوله « لامناص للرجل الذى ينتمى لطبقة الحكام من أن يكون ذا سلوك منظم فاضل ولكن لكى يكون ذا سلوك فاضل عليه أن يؤدى واجباته نحو ذوى القربى ولكى يؤدى واجباته نحو ذوى القربى عليه أن يفهم طبيعة المجتمع الإنســـانى والقواعد التى يقوم عليها التنظيم الإجتماعى ، ولكى يفهم طبيعة المجتمع الإنسانى عليه أن يفهم القوانين الإلهية » .

ذلك هو أسلوب كنفشيوس فى الكتابة ، فلنذكر الآن أمثلة من شعره مأخوذة من كتاب الأغانى :

يقول فى وصف الأمير الصالح :

إن الأمير النبيل العظيم يتسم بكل معانى العدل فى جميع تصرفاته ؛ فروح الحكمة تسيطر على أفراد شعبه ؛ كبيرهم وصغيرهم، أشرافهم وسوقتهم .

وعلى ذلك لن تتردد السماء ، التى تتوج الأسياد فى أن تخلع عليه من ألوان الشرف مالا يحصى ؛ إذ أن السماء تراقب وتلاحظ كل شئ قد أعطتــه تفويضاً لكى يجلس على عرشها (على الأرض) .

وبجانب ذلك نجد أمثلة رائعة لكنفشيوس وإن كانت قليلة ، فى الحوار والمنــاقشة ، وذلك كما هى الحال عند ما دار بينه وبين دوق آى ، وهو من الولاة المعاصرين له، حوار طويل عن طقوس الزواج وكيف تكون العــلاقات بين أفراد الأسرة . سأل الدوق كنفشيوس « ... ما أعظم شئ فى حياة الناس ؟ » ويجيب كنفشيوس « ... إن الحكومة هى أعظم شئ فى حياة الناس ، لأن الحكومة معناها الحكم الصحيح فاذا سلك الحاكم الطريق السليم فان الأفراد سيقتفون أثره ويصبحون حسنى السلوك . . . . » ، عندئذ سأل حاكم آى « .... كيف يكون الحكم سليما ؟» ويجيب كنفشيوس « التميز بين الزوج والزوجة والمودة بين الأب والابن والثقة بين الحاكم والمحكوم ...» ثم يستفسر الدوق عن كيفية تحقيق كل ذلك ويجيب كنفشيوس بأن الحب أعظم أداة للربط بين الناس وإيجاد الصلة بينهم ؛ ويبين كيف أنه فى الصين فى العهد القبلى العتيق كان الملك يذهب بنفسه لعقد القران بين الزوجين وذلك ليربط بين العشائر بأربطة من المودة والمحبــة . فالأقدمون كانوا ينظرون — فيما يرى كنفشيوس إلى الزواج القائم على الود بين عشيرتين كأعظم أداة لإصلاح الجماعة ، لأن السماء — فى رأيهم — قد تزوجت الأرض واستطاعتا بالمحبة أن ينميا كل شيء فى الطبيعة من ملايين الأشياء، فطقوس الزواج إذن ميراث يجب أن تتداوله ملايين الأجيال لأنها تجعل من الزوجين شبيهين بالسماء والأرض الإلهين . وهذه الطقوس من شأنها تأكيد الاحترام بين الناس .

ننتقل بعد ذلك إلى عرض موجز لبعض نواحى فلسفة كنفشيوس كما وردت على لسانه فى كتبه الخمسة أو فى كتب تلاميذه أى الكتب الأربعة .

٤ — الأخلاق والسياسة

الأخلاق — فيما يرى كنفشيوس هى المبدأ الرئيسى الذى يجب أن يكون أساساً لأى نظام اجتماعى وسياسى مستقر ، فلا يتحقق نظام سليم إلا إذا كان الأفراد الخاضعون له متحلين بالأخلاق الكريمة . ولا يستطيع حاكم أن يقيم نظاماً اجتماعياً كاملا إلا إذا عمل أولا على تكميل أخلاق الأفراد أنفسهم ، فإذا شعر كل إنسان بالانسجام الداخلى والراحة النفسية تسيطر على ذاته عمل على تثقيف نفسه وتجميلها بالمعارف التى تجعل منه مواطناً يفهم العادات والتقاليد والقوانين التى تخضع لها الطبيعة ، ومن ثم يعامل مواطنيه وفق هذه القوانين ويسود الانسجام بين الناس . ولا تتم الأخلاق الكريمة للفرد إلا بالتعليم والتربية التى تخلق منه مواطناً صالحاً والتى يكون عليها الاعتماد الأكبر فى تهذيب الأخلاق . وثمة شرط ثان لانتشار الأخلاق الفاضلة التى هى عماد الحكم الصالح، وهو أن يكون الحاكم نفسه ذا أخلاق سليمة لأنه مثال لمواطنيه، فإذا وصلت أخلاق الأفراد إلى الكمال قامت الأخلاق مقام القانون ، لذلك كان الكنفوشيون يمقتون التشريعات والقوة كأساس للحكم السياسى . فهم يرون أن تهذيب أخلاق الناس عن طريق التعليم يجعلنا نستغنى عن القوة وعن القانون والتشريعات والقضاء . ويقول كنفشيوس « إنك إذا قدت الناس وفق قوانين إجبارية وهددتهم بالعقاب ، فقد يحاولون اتقاء العقاب ، ولكن لن يكون لديهم الشعور بالشرف ، ولكنك إذا قدتهم بالفضيلة ونظمت شئونهم بالتربية فإن علاقاتهم ستقوم على أساس من الشرف والاحترام » . وبذلك خالفوا المدرسة القانونية التى كانت ترى أن القوة لازمة لتنظيم علاقات الأفراد

بعضهم ببعض ، كما خالفوا المذهب التاوى وهو مذهب لأوتس الذى كان ينادى بالسلبية المطلقة ، أى أن يعيش الفرد لنفسه وبنفسه بدون أدنى تفكير فى الآخرين . وسنرى كيف استخدم كنفشيوس الموسيقى والفنون فى علاج نفسيات الأفراد وفى تقريب مشاعرهم بعضهم من بعض ، كما اهتم بالطقوس الدينية والعادات والتقاليد لأنها تقرب بين الأفراد وتؤلف بينهم وتجعلهم يشعرون بوحدتهم وتضامنهم ... وكل ذلك يؤدى إلى وجود الحب والانسجام بين المواطنين ، مما يؤدى بهم بدوره إلى الاستغناء عن القوة وعن القانون فى فض المشكلات وفى إلزام الأفراد بالقانون الأخلاقى . ولكن ما هو القانون الأخلاقى ؟ إن هذا القانون هو قاعدة السلوك السليم القويم ، وهى القاعدة التى يلتمسها كل إنسان فى سلوكه . ومصدر هذه القاعدة هو الله أو السماء فهو الذى شرعها ونظمها ، ومن ثم فهى لا تقبل التغير والتبدل . ولقد وضعت السماء جوهر هذه القاعدة فى كل منا بشكل كامل . ذلك أن الله قد منح كلا منا طبيعته العقلية ، وهى الطبيعة التى تجعلنا أحياء مفكرين . والقاعدة الأخلاقية ليست شيئاً آخر إلا توجيه أفعالنا الإنسانية بما يتفق وطبيعتنا العقلية الإلهية . ومجموع القواعد الأخلاقية التى تنظم سلوكنا وهى ما نسميها باسم الواجبات موجودة فينا ، ونشعر بها عند ما نريد فعلا من الأفعال إذ نشعر أنه أخلاقى أو غير أخلاقى . فالإنسان إذا رجع إلى نفسه عرف القانون الأخلاقى بكل جلاء ؛ ولكن قد يخطىء بعض الناس لجهلهم التفرقة بين الخير والشر ، لذلك كان التعليم ضرورياً حتى يتقى الإنسان الخلط بين الخير والشر إذا رجع إلى نفسه يستشف منها القواعد الأخلاقية . والقواعد الأخلاقية عند كنفشيوس هى وسط بين الإفراط والتفريط ، لأن الطبيعة الإنسانية تقوم على عنصرين : الذات الإنسانية الحقة أو الذات المركزية أو الموجود الأخلاقى كما يسميه كنفشيوس ، ثم الانفعالات التى تستيقظ فى النفس الإنسانية . وهذه الانفعالات إذا استيقظت ونمت فى الإنسان بحيث لا تتعدى حداً معيناً فى شدتها فإنها تصل مع الذات الإنسانية المحضة إلى حالة من الانسجام والاستقرار النفسى . فالشخص قد يخشى الرذيلة ويبالغ فى هذا إلى حد التريث حتى يصل إلى درجة تعلو على مستوى القانون الخلقى ويقع فى الرذيلة ، فالقانون « وسطى » بين المغالاة والتهاون . وهنا نجد كنفشيوس قريباً مما سيقوله أرسطو عن الفضيلة وأنها وسط بين رذيلتين .

والحياة الأخلاقية أشبه شىء بسفرة طويلة يقطعها الإنسان بادئاً بأقرب نقطة فيها ، وعلى ذلك فالأخلاق الفاضلة تبدأ بين أبناء الأسرة الواحدة حيث يعامل الأب أبناءه بنفس المعاملة التى كان ينتظرها من والده . وكذلك تكون معاملة الأبناء للآباء والأمهات ، فالأسرة هى المكان الأول للتجربة الأخلاقية وهى النقطة الأولى التى تبدأ منها الأخلاق الفاضلة إذ (كما يقول كنفشيوس فى كتاب الشعر) .

عندما تسود الألفة بين الزوج والأولاد والزوج
فما أشبه المنزل بربابة وعود قد تآلفت أنغامهما !
وعند ما يعيش الإخوة فى تآلف وسلام ،
فحينئذ يظل المنزل إلى الأبد فى وحدة وانسجام .

فإذا حسنت أخلاق أفراد الأسرة ومعاملاتهم حسنت أخلاق المجتمع لأن المجتمع ليس إلا امتداداً للأسرة ، ولأننا « إذا علمنا كل أسرة كيف تتخلق فإن المجتمع كله يتعلم كيف يتخلق ، وإذا تعودت كل أسرة على العطف والشفقة ، تعود المجتمع كله على الشفقة والعطف ، وإذا عملت كل أمة على إصلاح حالها فإن الانسجام والوئام سيسودان المجتمع الإنسانى بأسره » .

ويقول كنفشيوس « إن الفضائل التي نستطيع اتخاذها أساساً للعلاقات بين الناس عشر وهي : عطف الوالد على أولاده ، واحترام الابن أباه ، ومعاملة الأخ الأكبر أخاه الأصغر باللين ، وخضوع الأخ الأصغر للأكبر مع احترامه له ، وتحلي الزوج بحسن الخلق مع زوجته ، وطاعة الزوجة الزوج ، وحسن معاملة الكبار للصغار ، وطاعة الصغار للكبار ، وحسن معاملة الحاكم لرعاياه وعطفه عليهم ، وإخلاص الوزراء والولاة فى أداء مهمتهم » .

وعلى الحاكم أن يتحلى أيضاً بالأخلاق لأنه مثال للأفراد ، وعليه فى هذا الصدد التزامات تسعة ١ — أن يتحلى بكل ما سبق بيانه من أخلاق للأفراد العاديين ٢ — أن يحترم الأفراد الجديرين باحترامه ٣ — أن يتودد إلى من تربطه بهم صلة القربى وأن يقوم بالتزاماته إزاءهم كاملة ٤ — أن يجل وزراء ولايته أو امبراطوريته ٥ — أن يعامل موظفى دولته بالحسنى ٦ — أن يجعل من الصالح العام صالحه الشخصى وأن يجعل من نفسه أباً للشعب ٧ — أن يعمل على تشجيع الحرف والصناعات والفنون والنهوض بها ٨ — أن يعطف على رعايا الدول الأخرى المقيمين فى دولته ٩ — أن يهتم برفاهية أمراء الإمبراطورية .

ويجب ألا ينسى الامبراطور أو الوالى أن يستمع إلى نصيحة الشعب لأن « ماتراه السماء وتسمعه ليس شيئاً آخر غير ما يراه الشعب ويسمعه ، وما يعتبره الشعب جديراً بالثواب والعقاب هو ماتعتبره السماء جديراً بالثواب والعقاب ، فهناك اتصال وثيق مستمر بين السماء والشعب . وعلى من يدبرون شئون الشعب أن يرعوا ذلك ويتدبروه » . وكثير من العلماء وجد فى هذا الكلام أساساً للديمقراطية السياسية التى نادى بها كنفشيوس ، ونستطيع أن نقارن بين هـذا القول وبين ماجاء على لسان الفلاسفة اليونان والرومان من أن صوت الشعب من صوت الله Vox Populi, Vox Dei . بل كان كنفشيوس يعتبر أن الحكم تفويض من السماء أو الله للحاكم فهو خليفة استخلفه الله على الأرض ، وهذا التفويض ليس أبدياً بل يمكن أن يسحب منه فى أى وقت لا يلتزم فيه بالقانون الأخلاقى لأن السماء لاتمنح التفويض إلا للحكام الذين يتمسكون بالمثل الأخلاقية. ويقول فى هذا المعنى فى كتاب التاريخ « إن توكيـل السماء للحاكم ليس أبديا ، وهذا يعنى أن الحاكم يظل متمتعاً بهذا التوكيل الإلهى طالما استخدم هذا التوكيل فيما يعود على شعبه بالخير ، ويفقد الحاكم هذا التوكيل عندما يتبع سياسة الظلم» . ثم يضيف إلى ذلك « إن بقاء الحاكم أو الأمير يتوقف على رغبة الله أو إرادته ، وإرادة الله هى إرادة الشعب ، فإذانال الحاكم عطف الشعب وحبه فإن الله العلى السامى ينظر إليه بعين الرضا ويوطد عرشه . أما إذا فقد حب الشعب وعطفه فإن العلى السامى يصب غضبه عليه ، ومن ثم يفقد دولته »

ذلك تلخيص الفلسفة السياسية والأخلاقية الكنفوشية ولكن المجتمع الذى نادى كنفشيوس بوجوده مجتمع طبقى إذ كان يريد مجتمعاً يوضع فيه كل إنسان فى الطبقة التى تؤهله لها كفاياته ، فالناس مختلفون فمنهم الغبى والذكى ومنهم حسن الخلق وسيئه ، ويقتضى العدل الكنفوشى ألا يكون الناس فى منزلة واحدة . والقانون الأخلاقى يلزمنا أن نضع كل إنسان فى مكانته ووفق صفاته وكفاياته وأخلاقه لأن « الله إذ وهب الحيـاة لمخلوقاته لاشك وهبها من النعم مايتناسب مع صفاتها فهو ينمى الشجرة الممتلئة بالحيوية ، على حين أنه يطيح بتلك التى قد تطرق إليها الفساد ... » ولكن طبقات كنفشيوس ليست طبقات مقفلة على أصحابها بل هى طبقات مفتوحة يستطيع كل إنسان أن يصل إليها مادامت أخلاقه تؤهله لذلك . ولكل طبقة طقوس وعادات وتقاليد خاصـة بها وأنواع من الاحترام والتبجيل خاصة بها ولها وضعها فى السلم الاجتماعى وذلك هو الـ L i (لى) أو النظام الاجتماعى الذى

نادى كنفشيوس بتحقيقه، فطبقاته الاجتماعية ليست مقفلة فالطبقات الحرفية فى الهند أو Caste system أو كنظام الإقطاع الذى ساد العصور الوسطى أو غيرهما من نظم الطبقات المقفلة .

٥ — الدين والميتافيزيقا عند كنفشيوس

لم يأت كنفشيوس بدين جديد وكل ماكان يريده هو إحياء الأديان القديمة التى كانت سائدة فى الصين فى عصورها العتيقة ، وحث الأفراد على التمسك بها والقيام بما كانت تنادى به من طقوس وقرابين وأضحيات لأن هذا فى رأيه يؤدى إلى روح التضامن الاجتماعى بين الأفراد . كانت الديانة قائمة على عبادة السماء أو الإله الأعظم وهو رب الأرباب وحاكم الحكام ، ثم عبادة أرواح الأجداد ، ثم عبادة الجبال والأنهار ثم تقديم القرابين الخمسة التى تقابل أصول الموجودات الخمسة وهى المعدن والخشب والماء والنار والتراب وهو ماسيقول به بعض فلاسفة اليونان فيما بعد . وهذه العبادات كانت لها طقوس خاصة تختلف من عبادة لأخرى ، كما كانت القرابين التى تقدم فى كل عبادة تختلف عن القرابين التى تقدم فى العبادات الأخرى ، وهذه العبادات كان مفروضاً فيها أن تأتى بالنفع لبنى الإنسان ، فعبادة السماء تؤدى إلى أن يقوم كل رب من الأرباب المنتشرة فى السماء والبحر بمهمته المكلف بها من حفظ الكون وإنزال الخيرات ، وعبادة الأرض تنمى النبات ، وعبادة أرواح الموتى من الأجداد تؤكد الصلة بين الأجداد والآباء والأحفاد وتولد الشفقة والمحبة والعطف بين أفراد الأسرة الواحدة . أما عبادة الجبال والأنهار فهى تقديس للأرواح الإنسانية الأخرى غير أرواح الأقارب والأجداد .

أما تقديم القوانين للعناصر الخمسة فالغرض منه تخليد أصل الحرف الإنسانية . وتتمثل إرادة الآلهة فى القضاء والقدر اللذين تشرف عليهما السماء أو الإله الأعظم وكل مافى الكون من ظواهر ليس إلا نتيجة لتفاعل الأرض والسماء ، وهو التفاعل الذى تتمخض عنه الفصول من شتاء وصيف وربيع ، كما أن هذا التفاعل هو الذى يشكل الأرواح المختلفة .

أما الإنسان فهو ليس إلا نتيجة لتزاوج القوى السماوية مع القوى الأرضية ، أى تقمص الأرواح السماوية لجوهر العناصر الخمسة ، فالإنسان إذن يعد مركز الكون لأنه نقطة تلاقى القوى الأرضية والسماوية . والأرواح تتقمص جوهر العناصر الخمسة حتى تستطيع هذه العناصر أن تتمتع بالغذاء والرؤية والموسيقى ومن هنا كان على الإنسان أن يتمتع بكل شىء فى حدود القانون الأخلاقى . وعلى ذلك كان كنفشيوس ضد نزعة التقشف والحرمان التى نادى بها بعض المذاهب ولاسيما مذهب موتس Motse . والطبيعة الإنسانية تشتمل على سبعة انفعالات هى : الفرح والغضب والحزن والحب والكره والخوف والرغبة ، وتتمثل الرغبة فى ميل الإنسان للأكل والشرب والجنس ، كما يتمثل الخوف فى الخشية من الموت والفقر والألم . وعلى ذلك فالرغبة والخوف يلخصان القوى الدافعة للعقل أو القلب الإنسانى. ولا شك أن هذه القوى هى التى تعمل إما على تقريب الإنسان من القانون الأخلاقى أو على إبعاده عنه بحسب ظروف الإنسان ، فالرجل الفاضل هو الذى يصل — كما بينا — إلى القانون الأخلاقى بدون أن يتعالى عليه أو ينخفض عن مستواه بسبب ماينتابه من عوارض انفعالية نفسية ، والقانون الأخلاقى مؤسس على قوانين الطبيعة الإنسانية .

ويقول كنفشيوس فى هذا الشأن : « إن كل نظام للقوانين الأخلاقية لابد أن يتخذ أساسه من ضمير الإنسان نفسه وظروفه ، وهو الضمير الذى تؤيده التجارب الإنسانية للأجيال المتعاقبة ، كما تؤيده تجارب عامة الناس (الانسجام المركزى) . وكل نظام اجتماعى ناجح — فى رأى كنفشيوس — يجب أن يقوم

على الدين ، إذ الحكام والأفراد إذا قاموا بالطقوس الدينية وتقديم القرابين فإن هذا يؤدى إلى تأكيد الروابط الاجتماعية فيما بينهم ، كما يؤدى إلى إشاعة الحب والمودة بين الناس وبالتالى إلى تأكيد الإخلاص والثقة بين أفراد المجتمع . فالله أو السماء هو صانع هذا العالم بما فيه ، وفق قوانين منتظمة لاتقبل التخلف إذ الشمس والقمر مثلا يسيران فى تتابع منتظم والأشياء توجد وتعيش وتفنى بانتظام ودون أى تدخل من جانبنا ، وتلك الظواهر كلها تمثل القانون الإلهى ، والرجل العاقل هو الذى يسير وفق هذا القانون الذى يمثل فى الآن نفسه القانون الأخلاقى ، إذ عند مايطيع الابن أباه فإنه يتبع نفس القانون الإلهى فهو عندما يخدم أباه إنما يخدم فى الآن نفسه الله . فالحياة الفاضلة ليست إلا تأكيداً للقانون الإلهى الذى هو فى الآن نفسه تأكيد للطبيعة الإنسانية ولقانون الطبيعة العام .

٦ — الموسيقى والفنون وأهميتها عند كنفشيوس

لقد اهتم كنفشيوس بالموسيقى وكان يعتبرها من العمد الرئيسية التى يقوم عليها نظامه الاجتماعى ، وكان يستخدمها فى علاج الأمراض النفسية كما فعل كثير من الفلاسفة القدامى وكما يفعل كثير من العلماء اليوم . فالموسيقى خاصة والفنون عامة ليست ترفاً عقلياً ، بل هى تلعب دوراً اجتماعياً فعالاً فى إصلاح الحياة الاجتماعية . فالنفس الإنسانية (والنفس والقلب عنده شىء واحد) إذا تأثرت بالعالم الخارجى وما به من ظواهر طبيعية واجتماعية فإنها تعبر عن هذا التأثير بأصوات تختلف فى درجتها ونوعها حسب كل حالة على حدة ، أى تعبر عن التأثر بصوت ، وإذا رتبت الأصوات بشكل معين نتج عنها النغم ، و إذا رتبت الأنغام نتجت عنها الموسيقى . وفى القلب الإنسانى أوتار مختلفة كل منها مرتبط بانفعال نفسى خاص ، فعندما تمس الحوادث الجارية وتراً فى القلب فإن الإنسان يعبر عنه بنغم معين ، فالنغم الذى ينتج عن وتر الحزن الموجود فى القلب يكون بائساً حزيناً ، والنغم الذى ينتج عن وتر الاطمئنان يكون هادئاً والذى ينتج عن وتر الغضب يكون خشناً ، والنغم الذى ينتج عندما تمس الحوادث وتر الحب يكون رقيقاً ... وهكذا . وهذه الأنغام تنتج إذن من التقاء الحوادث بالقلب الإنسانى ، فالموسيقى إذن تعبر عن النفس الإنسانية وما يعتريها من انفعالات . ونستطيع بشكل عكسى أن نؤثر على الحالات النفسية عن طريق الموسيقى ، فنهدىء النفوس أو نثيرها أو نقلقها أو نحزنها أو نفرحها عن طريق الأنغام الموسيقية . وعلى ذلك نستطيع إصلاح النفوس بالموسيقى وترقيق مشاعر الأفراد وتحسين علاقاتهم الاجتماعية بعضهم ببعض عن طريقها ، ومن ثم يستطاع تدعيم التضامن الاجتماعى بين الأفراد عن طريقها ودراسة نفسية أىّ شعب ومدى تقدمه أو تأخره ، إذ موسيقى الشعوب التى يعمها الرخاء والسلام موسيقى هادئة ، وبالعكس نجد موسيقى الشعوب التى تعمها الفوضى موسيقى مضطربة صاخبة ، تؤدى إلى القلق وعدم الاطمئنان ، وموسيقى الشعوب المغلوبة على أمرها موسيقى حزينة كئيبة مليئة بالمرارة والأسى . ولا تعكس الموسيقى النفس الإنسانية فحسب ، بل هى تعكس النظام الكونى ، إذ أن العالم يتكون من عناصر خمسة كما سبق أن بينا . وهذه المواد تعتريها حالتان إحداهما إيجابية ينتج عنها الضوء والحرارة والذكورة والحركة ، والأخرى سلبية ينتج عنها الظلام والبرودة والأنوثة والسكون . وتختلف نسبة وجود هاتين الحالتين فى العناصر المختلفة فالماء مثلا تغلب عليه الحالة السلبية والنار بالعكس تغلب عليها الحالة الإيجابية . وهذه العناصر بحالتيها تكون الجزء المادى من الموجودات ، وذلك بجانب النفس أو الروح التى تكون الجزء الروحى . وهذا التقسيم الخماسى للمواد التى يتكون منها الكون يقابله تقسيم خماسى لكل

ظاهرة فى الكون والمجتمع ، فمثلا الألوان خمسة والجهات الأصلية خمسة (الشرق والغرب والشمال والجنوب والوسط) ، وعلاقات القرابة خمسة (الأمومة والأبوة والبنوة والأخوة والزوجية) . . . وهكذا ، ثم يحاول كنفشيوس بطريقة معقدة الربط بين هذه التقسيمات وبين أنغام موسيقية خمسة، يحاول عن طريقها بيان أن لكل ظاهرة فى العالم الكونى أو الاجتماعى نغماً خاصاً يدل عليها ويعكس ما إذا كانت تلك الظاهرة سليمة أو غير سليمة .

* * *

وقصارى القول هنا أن الموسيقى تمثل بأنغامها المختلفة كل شيء فى الوجود والمجتمع ، ويستطاع عن طريقها إصلاح ما اعتل من شئون هذا العالم سواء فى ذلك الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية أو الفردية . لذلك يجب على الأفراد أن يتعلموا الموسيقى لأنها تؤدى بهم إلى مداواة أنفسهم من الأدواء وتجعلهم أقرب إلى فهم القانون الإلهى والقانون الأخلاقى ومن ثم نجعلهم أقرب إلى الفضيلة .

وليست الموسيقى وحدها هامة فى هذا السبيل بل كل الفنون أو الطقوس التى يقوم بها الأفراد فى المناسبات المختلفة من رقص وغناء وحركات تعبيرية... « فالشعر يعبر عما فى القلوب والغناء يعبر عن الصوت والرقص يعبر عن الحركات . وهذه الفنون الثلاث تنبع من النفس الإنسانيـــة ، والموسيقى بآلاتهـــا وأصواتها تزيدها روعة وجلالا ، وتجعلها أكثر دقة فى التعبير عن المشاعر الإنسانية بلا زيادة ولا نقصان » .

وإذا كانت الموسيقى تؤدى إلى الانسجـــام بين الأفراد فإن هـــذه الفنون والطقوس تعوِّد الفرد على الطاعة واحترام النظام والسير فى انسجام مع زملائه ، كما أن ثمة وظيفة أخرى للطقوس ، إذ هى تبين لكل شخص مكانته فى المجتمع وتعوده على فهم درجته الاجتماعية لأن الطقوس تختلف باختـــلاف الطبقات عبر السلم الاجتماعي ؛ فللأفراد طقوسهم وللصناع طقوسهم وللعلماء طقوسهم . . . الخ فالطقوس تعوِّد —كالفنون— الأفراد على احترامهم بعضهم بعضاً وعلى إيجاد التناسق بينهم ، كما تؤدى إلى إيجاد التناسق بين الطبقات الاجتماعية المختلفة .

٧ — الخاتمة

تلك لمحة سريعة عن كتب كنفشيوس الخمسة وما أدت إليه من كتب أربعة كتبها تلاميذه ومحتويات هذه الكتب . ولكنفشيوس وتلامذته آراء فى التربية والتصوف ، ولهم مواقف إزاء المدارس الصينية الكثيرة التى انتشرت فى الصين ، ولاسيا بين القرنين السادس والثامن قبل الميلاد ، ولكننا قد ذكرنا فى هذا المقال أهم آراء المدرسة الكنفوشية (١) .

(١) أهم ما رجعنا إليه من مراجع :
1) H.A. Giles : Confucianism and Its Rivals, London, 1915 ; 2) M.A. Pautheir : Doctrine de Confucius, Paris ; 3) Lin Yutang : The Wisdom of Confucius, N.Y. 1938 ; 4) K. Wilhelm : Kung Futze, Leben und Lehre, 1925 ; 5) M. Grant : Confucius, Paris, 1939.

